نَفائِسُ اقتِصاديَّةٌ حَضارِيَّةٌ
مِن مَنهَجِ الأديبِ العالِمِ المُؤَرِّخِ
أحمد إبراهيم الصابونيّ (رَحِمهُ اللهُ تعالى)

وُلِد (١٢٩١هـ – ١٨٧٥ م) وتوفّي (١٣٣٤هـ ١٩١٦م)

محمد ياسر الدباغ
مدقق لغوي

الحلقة (١)

بسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ، والحمدُ للهِ ربِّ العالَمِينَ، وصلَّى اللهُ وسلَّمَ على سيِّدنا وقائِدنا مُحمَّدٍ؛ الذي ربَّاهُ رَبُّهُ عزَّ وجلَّ فأحسنَ تربيتَه، ورَضِيَ اللهُ عن آلِه وصَحابَتِه الذينَ ربّاهُم رَسُولُ اللهِ؛ لِيُربِّي بِهِمُ العالَمَ، وعلى مَن سارَ على دَربِهِم واقتدَى بهَديِهِم، ونَهَجَ نَهْجَ (الهُدى والتُّقى والعَفافِ والغِنى)؛ فكانُوا بين الناسِ رقْماً صعباً؛ لا يُباعُ ولا يُشْرَى، وعِندَ اللهِ تباركَ وتعالى أنجُماً وبُدوراً؛ مَن كانت كلماتُهم نفثاتٍ صَدرتْ مِن صُدورٍ مُفعَمةٍ بِحُبِّ اللهِ عزَّ وجلَّ، ونفْعِ عبادِ اللهِ؛ فبيَّنُوا لهُمُ معالِمَ الطريقِ الأبلجِ الأجلّ؛ لِيسْلُكوا بهِمِ الصراطَ المستقيمَ والمنهجَ القويمَ.

ومِن هؤلاءِ الأنجُمِ والبُدورِ صاحِبُ القلمِ والألَمِ، الباعثُ في ثنايا كلماتِه الأملَ بينَ الأُمَمِ، ومُوقِظُ الغافِلينَ ومُنذِرُ المُتقاعِسينَ عن اللَّحاقِ في رَكْبِ أهلِ العزائمِ ورُوَّادِ الحَضارةِ والقِيَمِ؛ إنّه الأديبُ العالِمُ المُؤرِّخُ "أحمد إبراهيم الصابونيّ" أبو فايزٍ – رَحِمَهُ اللهُ تعالى –؛ الذي فازَ بنَيلِ العِلمِ وتاجِ الأدبِ ونِبراسِ القِيَمِ، وكانتْ كتاباتُه وكلماتُه درْساً وتدْريساً، اتِّباعاً وإبداعاً، نفائسَ وعرائسَ في سماءِ الدُّنيا، ومِحرابِ الدِّينِ، ومِنبَرِ الخُطباءِ العُلماءِ الأطبَّاءِ الحُكماءِ؛ الذين يُحسِنُونَ تشخيصَ الأدواءِ (فرداً وأُسرةً ومُجتمعاً) وعلى ضَوءِ الكتابِ العزيزِ ونُورِ السُّنَّةِ العطِرَةِ؛ يَهديهِ اللهُ عزَّ وجلَّ لِوضْعِ العلاجِ بما يتلاءمُ مع مُقتضَياتِ الحياةِ السعيدةِ، ومتطلَّباتِ العيشِ الرَّغيدِ بعيداً عن الجُمودِ والتقليدِ؛ بل علاجٌ ناجعٌ ودواءٌ للأواءِ الحياةِ الصَّعبةِ والمَعيشةِ الضَّنْكِ؛ لِنَيلِ الشفاءِ من الأدواءِ بإذنِ اللهِ تعالى (فِكْراً وصَدراً، قلباً وجِسماً، فَرداً وأُمَّةً، ديناً ودُنيا، علماً وعَملاً، حِرفةً وصَنعةً، رِيادةً وسِيادةً).

لقد كانت كلماتٍ؛ بل نفثاتٍ اكتَوى بها صَدرُه؛ فكانتْ مَشاعِلَ تتراءى لِكُلِّ ذي عَينَينِ مُضيئةً مُبارَكةً تُنيرُ السبيلَ للحائِرينَ، وآهاتٍ انطلَقتْ من قلبِه؛ فكانتْ شُهُباً ونُذُراً، وكتاباتٍ سُطِّرَتْ؛ فكانتْ مَنهجاً ونُوراً؛ فكان بحقٍ بينَ الناسِ شجَراً مُثمِراً؛ رماهُ السُّفهاءُ بالحَجرِ فتساقطَ عليهِم دُرّاً وياقُوتاً وجَوهَراً. أجلْ: إنَّهُ جوهرٌ كريمٌ يَصدرُ مِن مَعدنٍ نفيسٍ، وياقُوتٌ يتراءى لِكُلِّ ذي عينَينِ، ودُرٌّ يتلألأ في سماءِ الحياةِ الطيِّبةِ المُبارَكةِ.

وأدعُ المجالَ لِشعرِه البديعِ وتصويرِه البليغِ؛ لِيُترْجِمَ عن (مَكنُونِ صَدرِه، ومَخزُونِ قلبِه، وحَصافَةِ رأيِه، وبُعْدِ نَظَرِه، ودِقَّةِ تشخيصِه للحياةِ) مع عُنوانٍ لِكُلِّ لوحةٍ شعريةٍ مُقتبَسةٍ من كتابِ "نفثات مصدور" الذي حقَّقَهُ الأستاذُ الأديبُ المُترجِمُ "عبدُ الرَّزاقِ حَسن الأصفر" – حَفِظَهُ اللهُ وبارِكَ فيه ونفعَ به –، ومِنْ ثمَّ لا بُدَّ من ذِكْرِ قبَسٍ من الآياتِ الكريمةِ والسُّنَّةِ النبويّةِ وقَد قدَّمْتُها على أبياتِ الشاعرِ تقديماً لجَلالِ كلامِ اللهِ عزَّ وجلَّ وجَمالَ كلامِ رسولِه الكريمِ المصطفى صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ والتي اقتبسَ منها الأديبُ الفقيهُ (المعانيَ والحِكَمَ والمواعظَ)؛ والتي تُبيِّنُ تضلُّعَ هذا المُصلحِ العَلَمِ الفقيهِ الشاعرِ الحَكيمِ المُتنوِّرِ الذي سَبقَ أبناءَ عَصرِه وكان مُبرِّزاً في نقدِ أخلاقِ مجتمعٍ عمَّ فيه الفسادُ وطمَّ؛ مُبيِّناً ما يُصلِحُه من نُصحٍ وإرشادٍ في سَبيلِ الوصولِ بمُجتمَعِه إلى بَرِّ (السلامةِ والسِّيادةِ والسَّعادةِ):

* عجائبُ الأيّامِ:

قال اللهُ تعالى: (وما ظَلَمْناهُمْ ولَكِنْ أنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)، (ويُحِبُّونَ أنْ يُحْمَدُوا بما لَمْ يَفْعَلُوا)، (ولا تَنازَعُوا فتَفْشَلُوا وتَذْهَبَ رِيحُكُمْ)، (ولا تَتَّبِعُوا الهَوى أنْ تَعْدِلُوا)، (وتَعاوَنُوا على البِرِّ والتَّقوى).

قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: (لا تَدابَروا ولا تَقاطَعُوا..)، (المُسْلِمُ أخُو المسْلِمِ؛ لا يَظْلِمُهُ، ولا يَحْقِرُهُ، ولا يُسْلِمُهُ؛ بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أنْ يَحْقِرَ أخاهُ المُسْلِمَ).

وما الذَّنْبُ للأيّامِ لَكِنْ لأهْلِـــها ... ذُنُوبٌ دَعَتْهُمْ طُعْمَةٌ لِلنَّوائِـبِ
فَكائِنْ أرَى مِنْ صاحِبٍ مُتَقَلِّبٍ ... يُهاجِرُ دَوْماً صاحِباً بَعْدَ صاحِبِ
وَذِي حاجَةٍ في نَفْسِهِ يَبْتَغي لَها ... وُجُوداً لِيَرْقَى في أجَلِّ المراتِبِ
لَدَيهِ قُلُوبُ النَّاسِ طُرَّاً رَخِيصَةٌ ... وأمْوالُهُمْ خِلٌّ كَبَعْضِ المكاسِبِ
مَصائِبُ بَعْضِ النَّاسِ قَدْ جَرَّها لَنا ... ألا إنَّ بَعْضَ النَّاسِ بَعْضُ المصائِبِ

* غُثاءٌ وثِمارٌ:

قال اللهُ تعالى: (وقُلِ الحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ)، وعن ابنِ مَسعُودٍ رضي اللهُ عنهُ: (الجَماعَةُ ما وافَقَ الحَقَّ وإنْ كُنْتَ وَحدَكَ).

قال اللهُ تعالى: (وما نَقَمُوا مِنْهُمْ إلاّ أنْ أغْناهُمُ اللهُ ورَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ).

قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: (ولَكِنَّكُمْ غُثاءٌ كَغُثاءِ السَّيلِ)، (مَثلُ الذي يَقرَأُ القرآنَ كالأُتْرُجَّةِ، طَعمُها طيبٌ وريحُها طيبٌ. والذي لا يَقرَأُ القرآنَ كالتمرةِ، طَعمُها طيبٌ ولا ريحَ لها، ومَثلُ الفاجرِ الذي يَقرَأُ القرآنَ كمَثلِ الرَّيحانةِ، ريحُها طيبٌ وطَعمُها مُرٌّ. ومَثلُ الفاجرِ الذي لا يَقرَأُ القرآنَ كمَثلِ الحنظلةِ، طَعمُها مُرٌّ ولا ريحَ لها).

قال اللهُ تعالى: (أمَّا ما يَنفَعُ النَّاسَ فَيمْكُثُ في الأرْضِ)، (وتَزَوَّدُوا فإنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوى واتَّقُونِ يا أُولي الألبابِ)،

قال رَسُولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: (من جَرّ ثوبَه مخيلةً لم ينظرِ اللهُ إليه يومَ القيامة) .

مَحبَّةُ الحَقِّ ذَنْبٌ عِنْدَ مُبْغِضِه ... وَعِـزَّةُ النَّفْـسِ ذَنْبٌ لَيسَ يُغْتَفَرُ
والنَّاسُ مِثْـلُ غُصُـونِ الأيْـكِ ... تَنْظُرُها هَذا غُثاءٌ وهَذا كُلُّهُ ثَمَرُ
يُزَيِّنُ المرءَ ثَوبُ الفَضْلِ يَلْبَسُهُ ... ولا يُزَيِّنُـهـا الإعْجـابُ والبِـدَرُ

(جمعُ بِدْرَة: ١٠٠٠٠ دينار)

* مَصائِبُ الدّهْرِ :

قال اللهُ تعالى : (ما أصَابَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ)،

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (مَنْ خافَ أدْلَجَ، ومَنْ أدْلَجَ بَلَغَ المَنْزِلَ)،

قال الله تعالى : (ومِن النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ بِغَيرِ عِلْمٍ ويَتَّخِذَها هُزُواً)، (وإذا رأيتَهُمْ تُعْجِبُكَ أجْسَامُهُمْ وإنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَولِهِم كَأنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ)، (واعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً ولا تَفَرَّقُوا)، (ولا تَنازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ..)،

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: (دَبَّ فِيكُمْ داءُ الأُمَمِ قَبْلَكُمْ ؛حُبُّ الدُّنيا وكَراهِيةُ المَوتِ)،

قالَ اللهُ تعالى : (كَمَثَلِ رِيحٍ فِيها صِرٌّ أصابَتْ حَرْثَ قَومٍ فَأهْلَكَتْهُ)، (فَأصَابَهَا إعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ)، (وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ)، (إنَّ مَوعِدَهُمُ الصُّبْحُ أليسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ)؟ : (بلى) .

مَصائِبُ تَتْرَى والنُّفُوسُ غَـــوافِلٌ ... فإنْ عَظُمَتْ فَتْكاً فأسْبابُها نَحْنُ
هَنيئاً لِقَومٍ أدْلَجُوا قَبْلَ دَهْـــرِنـــا ... فَفازُوا وعَيْشُ الحُرِّ مِنْ بَعْدِهِمْ غَبَنْ
وَقَومٍ نَراهُمْ سادِرِينَ بِلَهْـــوِهِمْ ... لَهُمْ هَيئَةٌ مُثْلَى ولَيْسَ لَهُمْ ذِهْنُ
أخا اللُّبِّ ما بالُ القُلُوبِ تَخالَفَتْ ... فَمَزَّقَها التَّفْرِيقُ واحتَلَّهـا الوَهْنُ
كأطلالِ قَومٍ ضُعْضِعَـتْ فَتَزَلْزَلَتْ ... كَما زُلْزِلَ الإيوانُ مالَ بِهِ الرُّكْنُ
تَرَقَّبْ فَفِي طَيِّ الخَفاءِ حَـوادِثٌ ... ستُبصِرُها عَينٌ وتَسْـمَعُها أُذنُ

* أنقاضُ أُمَّةٍ :

قال الله تعالى : (ها أنْتُمْ أُولاءِ تُحِبُّونَهُمْ ولا يُحِبُّونَكُمْ)، (لو تَوكَّلْتُم على اللهِ حَقَّ التوكُّلِ؛ لَرَزَقَكُم كَما يَرْزُقُ الطَّيْرَ تَغْدُو خِماصاً وتَرُوحُ بِطاناً..)،

روى علقمةُ بنُ عَبْدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عَنهُ قال : (كيفَ أنْتُمْ إذا لَبِستْكُمْ فِتْنَةٌ يَربُو أو يَشِيبُ فيها الصَّغِيرُ، ويَهْرَمُ فيها الكَبِيرُ، وتُتَّخَذُ سُنَّةً مُبْتَدَعَةً يَجْرِي عليها الناسُ؛ فإنْ غُيِّرَ منها شَيءٌ قِيلَ غَيَّرْتُمُ السُّنَّةَ، قِيلَ متى ذلكَ يا أبا عَبْدِ الرَّحمَنِ؟ قال : إذا كَثُرَ قُرَّاؤكُمْ، وقَلَّ فُقَهاؤكُمْ، وكَثُرَ أُمَراؤكُمْ، وقَلَّ أُمَناؤكُمْ، والتُمِسَتِ الدُّنْيا بِعَمَلِ الآخِرَةِ، وتَفَقَّهَ الرِّجالُ لِغَيْرِ الدِّينِ) . " ثقافةٌ بلا سُلوكٍ عَمَلِيٍّ وتَطبيقيٍّ " (التواكل والتآكل)،

قالَ اللهُ تعالى: (فإذا جاءَ أجَلُهُمْ فلا يَسْتأخِرُونَ ساعةً ولا يَسْتَقْدِمُونَ)،

ألاَ في سَـــبيلِ اللهِ أنقاضُ أُمَّـــةٍ ... تُسَرُّ بما فيه اللبيبُ يُســاءُ
سَرَى حُبُّ أسْبابِ التَّخاذُلِ بينَها ... فَفَرِّقَها؛ إنّ التَّخـــاذُلَ داءُ
إذا حَـلَّ داءُ الانْـقِـراضِ بِأُمّـــــةٍ ... فليسَ لِداءِ الانْقِراضِ دَواءُ

* طبائعُ النّاسِ:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (المُسلِمُ مَنْ سَلِمَ النَّاسُ مِن لِسانِه وَيَدِه)، "مادِّيّاً ومَعنويّاً"، قال رَسُولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: الدِّينُ النَّصيحةُ،

قُلنا: لِمَن يا رَسُولَ اللهِ؟

قال: للهِ ولِرَسُولِه ولِكتابِه ولأئمَّةِ المُسلِمينَ وعامَّتِهم)، (مَنْ غَشَّ فليسَ مِنّا)

قال اللهُ تعالى: (وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ)، (إنّ بَعْضَ الظَّنِّ إثْمٌ)، (وأنْ لَيْسَ لِلإنْسَانِ إلاّ ما سَعَى* وأنَّ سَعْيَهُ سَوفَ يُرَى)، (وكُلَّ إنْسانٍ ألْزَمْناهُ طائِرَهُ في عُنُقِه ونُخْرِجُ لَهُ يَومَ القِيامَةِ كِتابَاً يَلقاهُ مَنْشُوراً)،

قال رسولُ اللهِ صلّى اللهُ عليه وسلَّمَ: (المُسْلِمُ مَن سَلِمَ المُسْلِمُونَ مِن لِسانِه وَيَدِه)،

قال اللهُ تعالى: (والبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَباتُهُ بِإذنِ رَبِّه والذي خَبُثَ لا يَخْرُجُ إلاّ نَكِداً)، (ولو رُدُّوا لَعادُوا لِما نُهُوا عَنْهُ وإنَّهُمْ لَكاذِبُونَ)، (مَثَلُ الَّذينَ كَفَرُوا أعْمالُهُمْ كَرَمادٍ بِقيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمآنُ ماءاً حتّى إذا جاءهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيئاً وَوَجَدَ اللهَ عِنْدَهُ فَوفَّاهُ حِسابَهُ)، فمِن المستحيلِ أنْ ينْصَحَ الخائِنُ؛ وإنْ نَصَحَ فنُصحُه مَدخُولٌ ، وكذلكَ مِنَ المستحيلِ أنْ تَجِدَ الماءَ في السَّرابِ.

تطيبُ حياةُ الجاهلينَ حياتَهُمْ ... ولَيْسَتْ حَياةُ العارِفينَ تَطيبُ
إذا أنْتَ لا تُؤذي بِفِعْلِكَ صاحِباً ... فأنْتَ لِكُـــلِّ العالَمينَ حَبيبُ
أرابَكَ مِنْ بَعْضِ الأخِلَّاءِ بُعدُهُ ... وعِنْدَكَ أفعـــالٌ إليه تُريبُ؟
سَـــيُذْكَرُ كُلٌّ بالحياةِ بِفِعْـــلِه ... ويَتْبَعُـهُ مِمَّـا أفـــادَ نَصيبُ
سَجِيَّةُ بَعْضِ النَّاسِ أنْ يَفْعَلَ الأذَى ... وآخَرُ يَخْشَـــى ما إليه يَعيبُ
ولَيـــسَ عَجيباً أنْ يَغُشَّكَ خائِنٌ ... ولَكِنَّ نُصْحَ الخائِنينَ عَجيبُ

اللّهُمَّ أحْيِنا مُجْتَهِدينَ، وأمِتْنا مُجْتَهِدينَ، واحْشُرنا في زُمرةِ العُلماءِ المُجْتَهِدينَ العامِلينَ المُجَدِّدينَ مع النَّبيِّينَ والصِّدِّيقينَ والصَّالِحينَ وحَسُنَ أولئكَ رَفيقاً؛ بِرَحْمَتِكَ يا أرحَمَ الرَّاحِمينَ اللهُمَّ آمينَ.